مات تيتو عاشت يوغوسلافيا

عبدالمنعم مصطفى

. أولا تيتو ما كانت يوغوسلافيا .

كان يمكن أن تكون أى شىء . إمارة هنا . أو دويلة هناك . لكن تيتو استطاع بإرادته الفولاذية أن يصوغ من ست جمهوريات وخمس قوميات وأربع ديانات ولغتين شعبا واحدا ودولة واحدة . يمثل استقرارها – بلا مبالغة – عامل استقرار هام فى قلب أوروبا . وقد كان تيتو عظيما . والعظماء لا يصنعون التاريخ فحسب . لكنهم يسهمون أيضا برؤيتهم المستقبلية فى صياغة المستقبل لشعوبهم وللإنسانية . . فهل ينجح تيتو فى هذا الاختبار الذى تجتازه أفكاره ومبادئه . وتجتازه بلاده أيضا بعد رحيله ؟

فى مناظرة تليفزيونية بين الرئيس الأمريكى كارتر والرئيس السابق جيرالدفورد أثناء معركة الانتخابات الرئاسية طرح هذا السؤال : فى حالة وفاة الرئيس اليوغوسلافى تيتو وتعرض أمن يوغوسلافيا للخطر . هل تتدخل الولايات المتحدة عسكريا إذا لزم الأمر ؟ ولأن الرئيس السابق فورد كان فى مركز القرار وبحى أعباءه وتكاليفه . فقد أحجم عن إبداء استعداده لإرسال قوات أمريكية فى هذه الحالة . أما الرئيس كارتر – الذى وصفه الراقدون وقتها بأنه يضع يده فى الماء البارد – فقد أبدى استعداده لإرسال المساعدات والقوات اللازمة للدفاع عن استقلال يوغوسلافيا .

وهذا السؤال وتلك المناظرة بين كارتر وفورد يمكنان وبصورة واضحة مدى الاهتمام الذى تحظى به يوغوسلافيا فى السياسة العالمية بحكم موقعها الاستراتيجى وموقفها السياسى الفريد . فهى شيوعية خارج دول المنظومة الشرقية . وهى غير منحازة وسط قارة قدر عليها الانحياز للشرق أو للغرب . وهى فى البلقان فريدة فى تركيبها السياسية فى نسيج غريب من الشيوعية واللامركزية ومن مختلف القوميات والأديان والأجناس .

وفى هذا المنطقة الخطيرة فى تاريخ يوغوسلافيا . حيث يغادر المسرح السياسى هناك رجل هو خالق مؤسس يوغوسلافيا . وهو يخلق أيضا علامة بارزة على صلابة الإرادة وإرادة السمو والشموخ فيها . يعاد طرح هذا السؤال الذى سبق أن واجهه الرئيس الأمريكى السابق جيرالدفورد : ماذا عن يوغوسلافيا ؟ إلى أين تمضى هى وإلى أين يمضى الآخرون معها ؟

أولا : يوغوسلافيا إلى أين ؟

لا شك أن الزعيم الراحل تيتو قد أرسى من خلال استجابته للظروف الخاصة جدا بالتجربة اليوغوسلافية عدة أسس يغلب عليها الطابع التوفيقى أملتها عليه هذه الظروف الخاصة . ولعل أهم هذه الأسس على الإطلاق هو اختيار النظام الفيدرالى بعد شهرين فقط من الاستقلال . ثم التصدى لمسألتى مؤكدا الطريق الخاص للشيوعية اليوغوسلافية . ثم إرساء مبادىء سياسة التسيير الذاتى [illegible] ووضع أسس ما عرف بعد ذلك بالشيوعية الأوروبية . ثم الاشتراك فى بناء فلسفة عدم الانحياز مع الباكستانى جواهر لال نهرو والزعيم المصرى الراحل جمال عبد الناصر .

وتشكل كل تلك الخيارات التى صنعها تيتو أو شارك فى صنعها الملامح الرئيسية لما يمكن أن نسميه « التيتوية » [illegible] .

ولكن عندما يغادر تيتو المسرح السياسى لابد أن نتساءل عن مدى إمكانية استمرار « التيتوية » . وهل كانت منهجا خاصا بتيتو وحده ؟ أو أنها صيغ يوغوسلافى وناتج طبيعى للتجربة اليوغوسلافية الخاصة ؟ . أو هى نموذج يمكن أن تختار حذوه الدول الأخرى سواء فى شرق أوروبا أو فى دول العالم الثالث ؟

ولأنه لا يمكن فصل التجربة اليوغوسلافية عن تيتو أو العكس فإن الخوف الذى تساور البعض

وفى ابريل ١٩٤٥ فى موسكو وقع تيتو وستالين معاهدة صداقة بين البلدين

فى شبابه .. مارى العسكرى

مع أحد الناجين من كرواتيا عام ١٩٣٢

داخل يوغوسلافيا وخارجها تصبح جديرة بدون الاهتمام . ولعل وعى تيتو بهذه الحقائق كان وراء سعيه الدءوب لخلق نظام مستقر لا يقل برحيله هو نظام « القيادة الجماعية » الذى حدده الدستور اليوغوسلافى الصادر عام ١٩٧٤ . ويشكل هذا النظام من جهازين رئيسيين :

● الجهاز الأول : هو مجلس رئاسة الدولة ويضم ثمانية أعضاء ممثلين لست جمهوريات ومقاطعتين متمتعتين بالحكم الذاتى ويتم طبقا لهذا النظام تولى منصب نائب الرئيس سنويا طبقا لنظام التناوب الدورى فى ١٦ مايو من كل عام .

● أما الجهاز الثانى فهو : مجلس رئاسة الحزب « رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف » ، الذى يضم ٢٣ عضوا من بينهم وزير الدفاع ممثلا للقوات المسلحة .

ومن بين أبرز أعضاء مجلس الرئاسة .

● لازار كولبشفسكى نائب رئيس مجلس الرئاسة خلال هذه الفترة التى تنتهى فى ١٦ مايو الجارى ومعنى هذا أنه سيصبح رئيسا لمدة أيام فقط ثم يليه مرسيجور فانيا لمدة عام آخر ينتهى فى ١٦ مايو ١٩٨١ وهكذا .

● أما المرشح ليكون أقوى الرجال فى حقبة « ما بعد تيتو » فهو فلاديمير باكاريتش عضو مجلس الرئاسة (٦٨ سنة) وهو من كرواتيا ويعتبر واحدا من آخر قيادات الحرس القديم وتعود صداقته بتيتو إلى أيام الحرب العالمية الثانية . إلا أن المشكلة التى تواجهه هى تدهور حالته الصحية حيث يضطر منذ عشر سنوات إلى ارتداء ملابس خاصة تعوقه عن الحركة

المطبخ .. أو الدائرة الداخلية :

ومع أن معظم المراقبين السياسيين يرون أن فى الإمكان تطبيق نظام القيادة الجماعية بنجاح - بل إن بعضهم يرى أن ذلك ربما كان الممكن الوحيد - فإنهم فى نفس الوقت يشيرون إلى الخاصية الملحة التى يعرف باسم « الدائرة الداخلية » أو المطبخ الذى يقوم بتقديم النصح والمشورة للقيادة الجماعية . حيث يتم فيه بالتعاون بينه وبين هذه القيادة طبخ القرارات الهامة . وترشح الدوائر الدبلوماسية فقده الدائرة الداخلية « أربعة عناصر قوية » هى :

باكاريتش عضو مجلس الرئاسة .

● ميلوس ميتيتش ٦١ سنة وهو أحد صناع السياسة الخارجية اليوغوسلافية وعضو هيئة رئاسة الحزب ورئيس لجنة العلاقات الخارجية وهو بالإضافة إلى كل هذا أحد كبار فلاسفة الحزب

● ليكولاى ليبوفتش ٦٣ سنة وهو من المقربين إلى زعيم اليوغوسلافى الراحل . كما أنه من الرواد الذين تصدوا للنازى خلال الحرب الثانية وقد التحق بالحزب عام ١٩٣٠ كما كان من الحراس الخصوصيين لتيتو بعد الحرب . ويتمتع بإرادة فولاذية وعقلية منظمة ومهارة تنظيمية فائقة . وقد لعب دورا بارزا فى تعزيز القدرات الدفاعية ليوغوسلافيا وبناء جيشها . ويذكر له أنه كان أحد العناصر الأساسية التى ساعدت على رفع حد للصراعات الكرسية داخل يوغوسلافيا فى كرواتيا عام ١٩٧١ . كما لعب دورا هاما أيضا فى إنهاء الثورات المسلحة عن لعبة صراع القوى السياسية .

● أما آخر العناصر القوية فى الدائرة الداخلية فهو « ستان دولانتش » الذى أقصى فى العام الماضى من منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب وذلك بسبب اعتراضه على مبدأ القيادة الجماعية ، وميل الراقون العريون إلى الاعتقاد بأن دولانتش ربما كان الوريث الوحيد الظاهر لتيتو فهو « بارجال » يبذل الجهد الوقيم لتخريج أفكاره إلى حيز التنفيذ .

ورحيل تيتو يخلق منصب رئيس الدولة طبقا للدستور ١٩٧٤ ليصبح النظام طبقا للدستور هو القيادة الجماعية والرئاسة الدورية . وإذا كان هذا النظام الخاص بالقيادة الجماعية مناسبا تماما فى وجود تيتو فإن مستقبل هذا النظام وقدرته على تجاوز مشاكل الأقليات ودعاوى التعصب تصبح محدودة . ذلك أن تيتو ربما كان هو « اليوغوسلاف » الوحيد أما الباقون فهم صربيون وكروات ون وسلوفانيون . وهكذا فإن شبة التعصب والانحياز لا يمكن استبعادها تماما . كما أن كل جمهورية أو مقاطعة ستعبر عنها فى مقاعد المعارضة طيلة فترة حكم الرؤساء السبعة الآخرين . وقد يتجاوز الأمر حدود لغة المعارضة . وهذا قد يرجح أن ضرورات الوحدة والاستقرار السياسى شكلا آخر من أشكال الحكم يكون استجابة طبيعية لطبيعة التركيبة الاجتماعية والديموجرافية للمجتمع اليوغوسلاف . وتقلل الأقليات فيه . إلا إذا ظهرت فى الأفق زعامة وطنية أخرى مثل تيتو أو إذا اختارت البلاد طريقة الانتقال السوفيتى من الشرعية المطلقة إلى القيادة الجماعية . وهو أيضا طريق حافل بالمخاطر بسبب الاختلاف الظاهر بين طبيعة النظام السوفيتى المركزى الراسخ ، والنظام اليوغوسلاف الذى لم تكتمل تركيبته الفريدة جدا

وإذا كانت لتيتو حلافة ليس له حتى الآن حليفة . ذلك أن يوغوسلافيا كانها لم يكن فيها سوى تيتو واحد فقط . وهذا فإن التحدى الذى يواجه حلافة تيتو هو تحدى صنع الحليفة الوحيد إلا أنه يصبح تحديدا صعبا بكل المقاييس . فأى تيتو قادم سوف يتمتع بمعايير الزعامة كما حددها والتصف بها الراحل العظيم .

والضرورات التى فرضت وجود دولة يوغوسلافيا هى ذاتها التى تفرض استمرارها لكن ثمة مشكلات ضخمة ومعقدة تحول من المحافظة على استمرار وجود هذه الدولة أمرا ضخما لكنه فى النهاية الممكن الوحيد أو البديل الأوحد للحرب والدمار وسط القارة الأوروبية المتوتر

مع تشرشل الكبير الأول لسفير في يوغوسلافيا عام ١٩٤٢

وفد عام ١٩٥٥ ذهب خروتشوف إلى بلجراد ليصلح غلطة ستالين

زكاء صديقا مخلصا مصر والرئيس السادات

مع جيولاكا وقد بعدها

الى تعم باستقرار نسبي منذ فترة غير قصيرة . تلك المشكلات هي مشكلة تباين المستويات الاجتماعية والحضارية والاقتصادية بين مختلف الجمهوريات . فجمهورية الصرب المتحدة تسعى إلى بسط سيطرتها امتدادا إلى كثرتها العددية وغلبة العنصر التركي عليها وسيادة المذهب الارثوذكسي فيها . وجمهورية كرواتيا تسعى للاستقلال عن الدولة الفيدرالية اعتمادا على ثرواتها وتقدمها فهي موطن الصناعة والعلم والثروة . وهكذا فإن النعرات الإقليمية في يوغوسلافيا لا يمكن إخفاؤها وإن كان ذلك لا ينفي وجود تباينات كافية ولو لبعض الوقت لعمل أجهزة

● الجيش اليوغوسلافي الذي تعددت مهمته الأولى في المحافظة على وحدة البلاد واستقلالها الذي تبلورت داخله « القومية اليوغوسلافية » على نحو يجعل الولاء ليوغوسلافيا الموحدة دون غيرها

● نظام القيادة الجماعية الذي سيعمل ولو لبعض الوقت على حماية وحدة البلاد واستقلالها . أي تحقيق المعادلة الصعبة الموحدة

في الداخل والاستقلال عن الخارج

● وأهم هذه الضمانات هو اقتناع كل اليوغوسلاف بوحدة بلادهم لا رغبة فيها فحسب إنما خوفا مما قد يخلفه الانقسام من مخاطر الغزو الخارجي أو الحرب الأهلية

والأوضاع الاقتصادية في يوغوسلافيا اليوم لا يمكن إخفاؤها على حاضر البلاد ومستقبلها صحيح أن نظام التسيير الذاتي الذي هو أساس البنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع اليوغوسلافي . قد أتاح قدرا من المرونة في إدارة الوحدات الاقتصادية وكذلك في اقتصاديات الجمهوريات والمقاطعات اليوغوسلافية . إلا أن هذا النظام ذاته قد تسبب في ظهور عدد من الظواهر السلبية لعل أهمها النعرات الظاهر في الدخول من جمهورية لأخرى . فالوسط داخل الفرد في جمهورية سلوفينيا على سبيل المثال - يبلغ ستة أضعاف دخل الفرد في مقاطعة كوسوفو . كما أن المناطق الغنية . لا تقبل بسهولة فكرة تقديم المعونة للمناطق الفقيرة

ولعل أخطر نتائج تلك الأوضاع الاقتصادية في يوغوسلافيا على الإطلاق هي زيادة تعقيدا الاقتصادية إزاء دول الكوميكون . فقد أصبح

وتدريس السباحة وصيد السمك هوايته المفضلة

تيتو يكرم الملك حسين ملكا وصدام حسين رئيسا للعراق

الاعداد السوفيتي هو السوق الرئيسية لصادرات يوغوسلافيا فقد يتيح للكرملين أداة ضغط اقتصادية فعالة على الحكام الجدد في بلجراد .

وبينما يصل معدل التضخم في يوغوسلافيا إلى ٩٠٪ في السنة فإن معدل التضخم يصل إلى ٢٧ في المائة . كما يصل عدد العاطلين إلى ٨٠٠ ألف عاطل فاذرا بالتأكيد حالة الكساد التي تسود دول أوروبا الغربية التي كانوا يعملون بها .

وهكذا فالاقتصاد اليوغوسلافي الذي يقدم لنا مزيجا فريدا من الإدارة الذاتية والاقتصاد المخطط والحر . يجمع مزاياها ويعاني أيضا من مساوئها يمكن أن يكون عامل الخطر في تقرير مستقبل البلاد . فعلى ضوء قدرة القيادة الجديدة على التصدي للمشكلات الاقتصادية يقدر مدى قدرة يوغوسلافيا على المحافظة على وحدتها واستقلالها في المستقبل القريب .

ثانيا : إلى أين يمضي الآخرون من حولها ؟

مرت أيام مرض الرئيس اليوغوسلافي في بيته (٨٧ سنة) وتدهور حالته الصحية ثم وفاته بعد صراع مع الموت دام ١١٢ يوما ، موجة من القلق في الأوساط العربية ، وفي الأوساط اليوغوسلافية قبل ذلك . فتيتو هو الزعيم الوحيد القادر على قيادة السفينة إلى بر الأمان

تيتو يزور عبد الناصر أيام عدم الانحياز في بلجراد

هذا بحدث إذن لوعات الرياح بينما يموج البحر حول سفينة بالأمواج والأمواج العاتية من كل ضوب ؟ ؟ كان هذا هو السؤال الذي واجهه فريد وأجاب عليه كارتر ثم تراجع بعد ذلك بدعوى أنه اكتشف قدرة يوغوسلافيا على التصدي للعدوان وحفاظها على استقلالها . وإن كان وعد بتقديم المساعدات اللازمة إذا ما طلبت يوغوسلافيا ذلك . لكن السؤال نفسه قد خرج الآن من دائرة الدائرة التليفزيونية إلى دائرة الواقع حيث يتعين أن تكون التقديرات صحيحة والقرارات أصح .

وبينما انشغل صناع القرار ورجال السياسة في الغرب في حساب الخطوة القادمة للسوفيت عامة بعد أن ابتلعوا أفغانستان . بينما وقفوا هم مكتوفي الأيدي يتفرجون في داخلهم ويتفرجون عواقم خلا عن النقد وعن كبش الفداء . بينما راح رجال السياسة في أوروبا وأمريكا يحسبون احتمالات التدخل السوفيتي في يوغوسلافيا وخلدون ويبيدون . كان اليوغوسلافيون يؤكدون أنهم الأحرص على استقلالهم والأقدر على حمايته .

ويقول من أقرب ما نقرته وكالة الوتاجديرس الأمريكية من بلجراد نقلا عن بعض العسكريين اليوغوسلاف : ذلك السيناريو الغريب الذي تمت عرض مستلزمات عدة لمقاومة القوة على احتلال اليوغوسلاف وحرمانهم على استقلاله

كارتر يهنئ الرئيس اليوغوسلافي بعيد الشباب

ضرب السيناريو : تمت الخلافات الحادة بين المعسكرين الأرثوذكس والكاثوليك واصبحت يوغوسلافيا مهددة بالقسام حظير ولكن في غياب تيتو هذه المرة . بعض الأشخاص يطالبون موسكو بالتدخل لحماية يوغوسلافيا الاشتراكية . الدبابات السوفيتية تتحرك إلى منطقة الحدود اليوغوسلافية تحت غطاء جوي كثيف . المدرعات السوفيتية تخرق حدود اخر وتتجه صوب الزنجانات الشمالية للصرب القوات اليوغوسلافية تتراجع إلى بلجراد بينما الزحف السوفيتي مستمر . العاصمة اليوغوسلافية محاصرة تماما بعد أسبوع واحد من المعارك . لكن الأمة لم تفقد كل شيء . فهناك مقاومة مقاتل من الشيشا الشعبة المسلحة جيدا . وهي تملك الآن مواقعها وتنصب كوابنا لبدأ في شن حرب شعبية ضد الغزاة . قد تسقط بلجراد لكن المعركة تبدأ من أجل وحدة واستقلال يوغوسلافيا .

سيناريو بالغ المرارة والجرأة أيضا . لكن اليوغوسلافيين هم الذين وضعوا هذا السيناريو فهيا نقل هذا اليوم

والجيش اليوغوسلافي الذي يبلغ تعداده حوالي ربع مليون مقاتل يعتمد في ٨٠ في المائة من تسليحه على ما تنتجه مصانعه بينما يشتري الأسلحة الأخرى المتقدمة من الشرق والغرب معا . وقد نبارعت يوغوسلافيا إلى نفي ما تسرب من أنه رسالة من تيتو إلى الرئيس كارتر يوصيه فيها بحماية يوغوسلافيا من التدخل الأجنبي . وأكدت أنها قادرة على حماية استقلالها بنفسها

ولكن هل هناك خطر حقيق يهدد استقلال يوغوسلافيا ؟ وما هي احتمالات التدخل السوفيتي فيها ؟

وحتى نتمكن لنا الإجابة على هذا السؤال المفترض فإنا نعرض أولا لمبررات هذا التدخل ثم لعناصره

أولا : دوافع التدخل السوفيتي ومبرراته :

● محاولة السوفيت إسقاط أسطورة تيتو وهدم هذا النموذج داخل يوغوسلافيا ذاتها وخارجها

● استغلال النزعات الانفصالية لدى البعض في يوغوسلافيا إزعاء بوجود فراغ في السلطة أو التدخل بدعوى مساندة الشعب اليوغوسلافي إعمالا لمبدأ « برجنيف »

● الوصول مرة أخرى إلى البحر الأدرياتيكي بعد أن رفض تيتو بصورة قاطعة منحهم تسهيلات وقواعد في أراضي يوغوسلافيا . وبعد أن حسر السوفيت مد أمد بعيد قواعدهم

تيتو مع ايدى بيدا (٥٦ سنة) من رجاله الأوفياء (السوفيات)

فى تيرانا بسبب موقفها من النزاع الصينى - السوفيتى.

ثانيا : محاذير التدخل السوفيتى :

● الخوف من تحول يوغوسلافيا نهائيا إلى المعسكر الغربى كنتيجة لتفجر السوفيتية.

● احتمالات رد الفعل العنيف من جانب الغرب بسبب تعرض الاستقرار الذى فى أوروبا للخطر مما يهدد بحرب شاملة.

● إن تورط السوفيت فى حرب مع يوغوسلافيا قد يثير ثورات التحرر من السوفيت داخل المعسكر الشرقى ذاته.

ولعل مقابلة الدوافع والمحاذير تشير إلى أن السوفيت لن يقدموا على هذه الخطوة فى المستقبل القريب على الأقل . بل إن من المتصور أن يسعى السوفيت إلى تحسين علاقاتهم بالقيادة اليوغوسلافية الجديدة وجرها إلى ارتباطات اقتصادية وسياسية . وكما ذكرنا من قبل فإن معظم صادرات يوغوسلافيا تتجه إلى السوق السوفيتية مما قد يتيح أداة ضغط هائلة ضد الحكام الجدد فى يوغوسلافيا . كما تمثل احتياجات يوغوسلافيا من الطاقة ورقة رابحة فى أيدى السوفيت الذين قد يعيدون النظر فى فتح البترول إلى يوغوسلافيا من جديد.

باختصار فإن الخط السوفيتى قد يتحدد فى :

● محاولة احتواء الحكام الجدد فى يوغوسلافيا

● محاولة استغلال الانقسامات الداخلية لحساب السوفيت أو تهديد العون للعناصر الستالينية فى الداخل.

أما الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا . فقد أدامت فترة المرض الطويل للرئيس الراحل تيتو التعرف إلى حد ما على مواقفها إزاء الوضع فى يوغوسلافيا . فكل من واشنطن وعواصم أوروبا الغربية تخشى احتمالات التدخل السوفيتى المباشر أو غير المباشر . ولهذا فإن المتصور أن تعيد الولايات المتحدة النظر فى موقفها إزاء مسألة تسليح يوغوسلافيا ، وكذلك استكمال مشروعات المعونة الدولية فيها.

أما أوروبا فقد تعيد التفكير فى علاقة يوغوسلافيا بالسوق المشتركة التى تتحمل مسئولية حماية يوغوسلافيا من أى ضغط اقتصادى سوفيتى محتمل . باختصار شديد فإنها ستحاول ابعاد يوغوسلافيا عن منطقة الجذب السوفيتية . كما عمدت دول التحالف الغربى بزعامة واشنطن إلى تحذير موسكو من خطر التدخل فى يوغوسلافيا وإلى محافظة ذلك على سياسة الوفاق والسلام العالمى.

وبين هؤلاء وأولئك مازالت يوغوسلافيا حريصة على سياسة عدم الانحياز ، التى تمثل ضرورة يوغوسلافية لضمان استقلال يوغوسلافيا وبعدها عن مناطق الجذب للقطبين الشرق أو الغرب . . إلى حد أنه حينما تدهورت صحة الرئيس اليوغوسلاق الراحل تم استدعاء طبيبين أحدهما هو البروفسور الأمريكى مايكل ويسكى إخصائى القلب ، والآخر هو البروفسور السوفيتى مارات كيتازيف . كلاهما انكب فوق جسد تيتو ، أو « يوذا الشيوعية » كما وصفه الزعيم الصينى ماوتسى تونج ، فى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . . لكن تيتو مات وظلت يوغوسلافيا فهل تستمر التيتوية فيها أو تتراجع ؟ ■

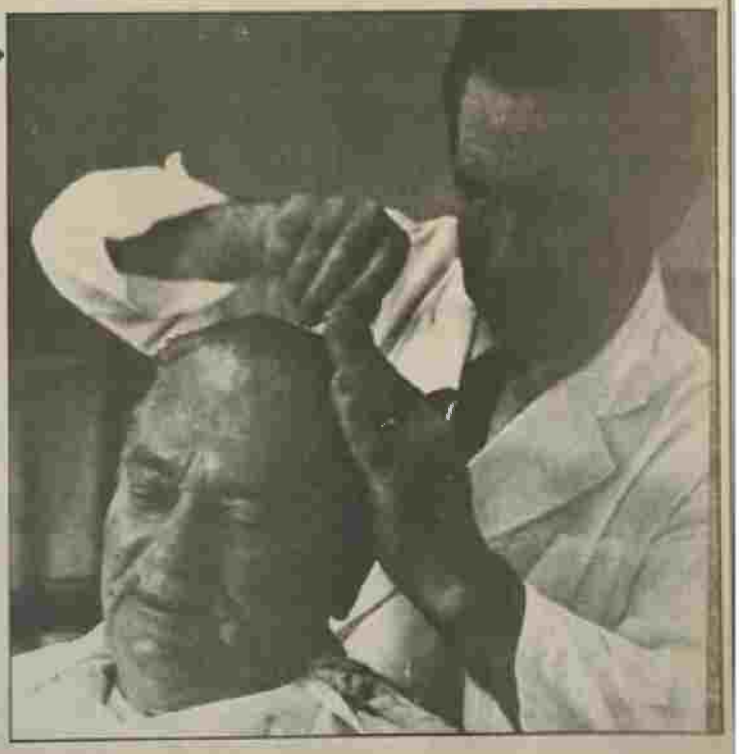

هكذا تيتو دائما لم يغير رأسه إلا انحناءً